ليالى الملاح التائه

لمؤلفه الشاعر على محمود طه

بقلم الأستاذ خليل هنداوى

ليس أحب على النفس التى تحيا فى هذا الجو الضيق الذى حل فيه الربيع بواكيه عابساً يائساً من أن تنطلق فى الحياة انطلاقة « الملاح التائه » الذى يخبط على غير هدى ، لا غرض له من هذا الخبط إلا أن ينطلق وينطلق ! فيضيع عن الشاطئ عبر هذا اليم الذى تلاشى عن عينيه شاطئه ، وأصبح يحمل الموج لمن يسأل عنه صدى ألحانه ، وفى هذه الألحان شوق غلاب ووجد ملح

حياة هذا « الملاح التائه » ، هى ذات حياة ذلك البوهيمى الذى انطلق من قيود الحياة ، وراح يطلب لذتها للذتها . إلا أن البوهيمى قريب منا حينما نطلبه ؛ أما ذلك « الملاح التائه » ، فقد انفصل عنا حتى ضنّت الأمواج علينا بالإبقاء على آثار زورقه ! فنحن نسمع أصداءه ، ولكن لا نعرف مصدر تلك الأصداء ؛ ونطرب لألحانه المقبلة مع الموج المتهدل ، ولكن هذه الألحان تبقى مجهولة الإيحاء !

أين صاحبها ؟ وأية موجة تلفّ الآن زورقه ؟ وأى شاطئ مرصّع تفتّح أمام عينيه ؟ أذكر أننى تلوت نقداً لديوانه الأول يلوم الشاعر على أنه يهمل مشاهد بلاده ، ويمعن فى وصف مشاهد غريبة عنه وعن أهله ؛ ولكن عزب عن الناقد أن — شاعرنا ملاح تائه — يعبر كل البحور، ويرف ناظره على كل الشواطئ، ويكحل جفنه بأى نوع من الجمال . ومتى انطلق الشاعر من هذه الحدود ، ترامى أمام طرفه ، لا نهاية فسيحة تبدو عليها حدودنا خطوطاً تكاد تلوح كباقى الوشم إزاء هاله الفسيح !

وفى « ليالى الملاح التائه » مشاهد غريبة — عن غير هذا الشاعر — توحى إليه عاطفة شديدة الإحساس ، لكنها فى هذه المرة لا تكاد ترتدى — الإنسانية — رداء حتى يردها إلى الأرض التى انفصلت عنها توازع فيها الوجد والحنين والاضطراب والكآبة ... وكل هؤلاء نعم القرين للشاعر ! وإذا كان لا بد من النقد ، فإننى آخذ على صاحب الليالى حشده لبعض مقطعات ليست من وحى الملاح التائه ! وليست أخوات تلك الرعشات التى تأتى متآخية مع رعشات الأمواج ! وأولى بمثل هذا الشاعر الصافى أن يتجرد كثيراً من شعر المناسبات . ومن أولى من الملاح التائه بالتجرد من هذا ؟ وهو الذى وقف حياته على الشعر الصافى ... ؟

أول ألحان « الملاح التائه » أغنية سامية أعدها فتحاً جديداً فى عالم الشعر والغناء ، هى « أغنية الجندول » التى نظمها خير شاعر ولحنها خير فنان ، قد امتزجت فيها عبقرية الشعر وعبقرية الفن ، حتى لتحار فى هذا الامتزاج الغريب الذى ترك للقطعة قيمة خاصة تذكرنا بالشعر العربى الوجدانى ، ولعلها تمت بصلة أو صلات إلى الموشحات ؛ ولكن تلك الأغنية أصدق عاطفة ، وأبعد تأثيراً فى النفس ، لأن العاطفة المجردة بعثت بها دون أن تترك مجالاً لتقلب الصبغة الكلامية ... ولعل هذه الأغنية هى أروع أغانى « الملاح التائه » لأنها تصور حياة هذا البوهيمى الذى يعالجه حنينان : حنين إلى مجالى الهوى ، وأين تلك المجالى ! وحنين إلى أرضه المتواضعة التى يصارعه الشوق إليها . حنينه الأول إلى كأس يتشهّى الكرم خمره ، وحبيب يتمنى الكأس ثغره ... هذا الحنين عاوده وأنساه كل شىء ... وبات من أجله يضيّع فى الأوهام عمره! ولكن الذكرى تناديه، والشوق إلى وطنه يهتف به ... فيشعر بغربته شعوراً كاملاً ، ولا يزيد على شعوره هذا شيئاً

قال من أين وأصلى ورنا قلت من مصر غريب ههنا !

هذا البوهيمى نفسه يمر على الخيام فيقف عنده ، وهو الذى لا يقف فى مكان، وهنالك يرسل لحناً يعد أعمق ما أرسله من ألحانه

ني لياليه ، وأنى لنا أن نتمثل هذا البوهيمى الذى أسناه جوب البحار وشق القفار ، حتى وقف عند باب هذا الخمار !

كنا لألأ فى الشرق السنا ... دقت الباب الأكف التائهة
أيها الخمار ! قم وافتح لنا ... واسقنا قبل رحيل القافلة

وما عسى يسقيه هذا الخمار الذى جمع خمره من كرم غريب من الكروم وعصرها من عناقيد ترى فيها :

كل عنقود دموع جمدت ... وقلوب فنيت فيها شعاعا
ما احتواها الفجر إلا اتقدت ... جمرة تذكو حنيناً والتياعا

وبعد السكر يناجى الخيام بمثل ما عاوده فى حياته ، وفى هذه النجوى صعود شاعر :

صرخت آلامه فى كوبه ... فهوى يثأر من آلامه
إنما البعث الذى تشدو به ... يقظة المفجوع فى أحلامه !

لله ما أروع هذا البعث ؟ ولكن حسبه تعزية :

... ... أنا سنحيا ... فى غد ، مثل حياة الزهر
وسنطوى الأبد المجهول طيا ... نُجددَ الأطياف شتّى الصور
حسبها تعزية أن نحلما ... بأناشيد الصباح المنتظر
ونشق الأرض عن وجه السما ... حيث نور الشمس أوضوء القمر
ربما جدّد أو هاج لنا ... نبأً ، أو قصةً من حبنا
نوح ورقاء أرنّت حولنا ... أو صدى قبرةٍ مرت بنا
... ...

فى الديوان شعر كثير ، وخطرات تدل على قلب شاعر :

وللشاعر قدرة عظيمة بنقل الحوادث الخاصة بروح إنسانية كما فعل فى قصيدة «مصرع الربان» . ولعل بين هذا الربان وهذا الملاح نسباً . هذا الربان هو للكابتن (ماكيج جونس) ربان حاملة الطائرات كوراجيوس التى أغرقتها غواصة ألمانية فى بدء الحرب الحاضرة ، فآثر الموت غريقاً مع سفينته على الحياة بعدها . ولما بلغ الماء هامته ، ألقى بقبعته على الموج إجلالاً للموت وإكباراً للبحر الذى حمله حياً وضمه ميتاً ! ولم يجد الشاعر فى هذه الحادثة مهرباً من وصف ذلك العدو الخافى القاتل ... وهو وصف دانٍ جداً من وصف شوقى للغواصة. وما أدنى المشابهة حين يقول :

رماك فى جنبات اليم محترب ... خافى القاتل عند الروع فرار
ترصدتك مراميه ولو وقعت ... عليه عيناك لم تنفذه أقدار

وأبدع بتلك الصورة التى خلدها الشاعر

وغاب كل مشيدٍ غير قبعة ... ذكرى من الشرف العالى وتذكار
ألقيتها ، فتلقّى الموج معتدها ... كما تلقّى جبين الفاتح الغار

وهذه قصيدة وليدة البحر ، لو لم يقع عليها الملاح التائه أثناء تطوافه لم يلقها ، لكن الباعث عليها يختلف عن جملة البواعث الأخرى ، لأنه باعث الحياة التى تهتز بانفجار ، وتأبى الحياة إلا فجاءة واقتحام أخطار

* * *

شعر فيه جميع عناصر الشعر !
زودّينا من مثل هذا الشعر يا مصر !
وهل الشعر إلا نشوة علوية وشعاع كأس لم يقبّلها فم ؟!

خليل شيراوى

إعلان

مطلوب لسلاح الطيران الملكى المصرى مدرسان حاصلان على شهادة البكالوريا أو ما يعادلها وشهادة الهندسة الأرضية حرف « ا » ويفضل من كانت شهادته من إحدى المدارس الآتية :

British aero Engineering School
D. H. Technical School, or air Service Training School

ومدرس للرسم حاصل على بكالوريوس كلية الهندسة المصرية وله خبرة فى الإشراف على الفصول ذات العدد الكبير

فعلى من يرغب الالتحاق بإحدى هذه الوظائف وتتوفر فيه الشروط المذكورة أن يقدم طلبه برسم حضرة صاحب السعادة مدير سلاح الطيران الملكى المصرى بكوبرى القبة فى ميعاد غايته آخر شهر يونية سنة ١٩٤٠

٦٩٥٥